مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية
Eissn :2600-6421 Issn : 2353-0464
المجلد 1 / العـدد: 04 (2013)، ص 34- 47

من وحدة الدين إلى تعدد الديانات

الدكتور احمد وارث
جامعة الجزائر- الجزائر.

يقول مالك بن نبي:" إن قدر الإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية، أو بعيدا عن حقبته، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته و تتفاعل معها ".[1]

بتعبير آخر، إن الإنسان يكتشف قدرته حين يتعالى على ذاته ويتجاوزها.

ولهذا فرغم كونه مقيَّداً ومشروطا(بجسده) بمحيطه الخارجي، إلا أنه يملك في ذاته(بفكره) إمكانا لا محدودا على التعالي، وعلى التجاوز. فهو قادر على تجاوز المكان والزمان الراهنين، ليعيش في عوالم أخرى،(إما أنها مضت، ولا يملك عنها سوى صورة في الذاكرة، وإما أنها لم تتحقق بعد، لكنه يمتلك عنها صورة في المخيلة). إنه يستطيع أن يتجاوز واقعه ليرتقي إلى الماوراء ما وراء العالم المحسوس.

وتلك هي الخاصة التي تميّزه عن الحيوان، الذي لا يستطيع إلا أن يستغل المعطى الطبيعي في ذاته، وفي محيطه، دون أن يسعى إلى تغيير شيء، أو تطويره. ذلك أن الحيوان أسير غريزته، وما طُبِعَت به أول مرة. و يعد الدين وجها من أوجه تجاوز الذات و البحث في الماوراء.

الإنسان و الدين:

- **الدِّين (Religion)**: هو نسق من المعتقدات والممارسات، يربط بين الكائن الإنساني، النسبي، ممكن الوجود، المتحوِّل، والفاني، من جهة، وبين الكائن الإلهي المطلق، واجب الوجود، الصمد، الواحد، الأحد، من جهة أخرى.

في اللغات اللاتينية، حسبما جاء في موسوعة(Universalis) تحت مادة:(Religion) فإنه يحلو للمؤلفين المسيحيين أن يشرحوا مصطلح (Religio) انطلاقا

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص. 51.

من الأفعال (Ligare religare, lier, relier) أي(إعادة الارتباط). ويصبح مفهوم الدين هو إعادة العلاقة، (باعتبار أن العلاقة الأولى قد حدثت، في مرحلة أولى، لحظة الخلق) وهي علاقة تعبُّد، وصلة مع الألوهية، وتعني الارتباط بها والتبعية لها.

قال تعالى: " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، وما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين" (الذاريات،56-57)

تقوم هذه العلاقة على الطاعة و الانقياد و الالتزام بمبدأ أو عقيدة، يدين بها الإنسان لإلهه، و يخلص له من خلال تمسُّكِه بها.

و نجد معنى الارتباط أو الصلة في اللغة العربية، من خلال مصطلح الصلاة.(الذي يشير إلى الصلة مع الله).

وفكرة الصلة تشمل إلى جانب الصلة مع الله، صلة بين المنتمين إلى الديانة الواحدة، وتوجيها يحدد نمط الصلة مع غير المنتمين إليها.

و ربما، لا تصح هذه إلا بتلك. فلا يصح الإيمان بالله، إن لم يكن مرفوقا بحسن العلاقة مع الأخ أو النظير، كما في الحديث الشريف، عن قتادة: " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه." [2] أو الحديث الشريف الآخر:" لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا. أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم. أفشوا السلام بينكم."[3]

و لكل ديانة منظومة المبادئ التي تحدد و تنظم سلوك المؤمن.

- التديُّن (Religiosité): pratique religieuse

وهو ممارسة الفعل الديني، وهو حالة نفسية. و هو جزء لا يتجزأ من ماهية الإنسان وفطرته[4]، مشتركة بين كافة الأجناس البشرية، من أشدها همجية، وأدناها حضارة، حتى أرقاها فكرا وتطورا. لكنهم يختلفون في كيفية التعبير عنه، بحسب

---

[2] أخرجه مسلم64،الترمذي 2439،النسائي4970.

[3] أخرجه الترميذي و أبو داود، و ابن ماجة، وأحمد.

[4] انظر في هذا الموضوع أيضا: G. w. f. Hegel , Leçons sur la Philosophie de la Religion ,traduit de l'allemand par J.Gibellin.Librairie Philosophique. J.Vrin. Paris. 1959. P7.

اختلاف تطوُّر وعيهم بذواتهم، وفكرهم، واختلاف تصورهم للعلاقة مع الكائن الأعلى(إلههم).

الدين إذن، ظاهرة صاحبت الإنسان منذ نشأته على الأرض في كل الأعصار، وكل الأمصار. وقد تميز الإنسان بالتديُّن منذ فجر التاريخ، حتى إن اختلفت طقوس تدينه.

- دوافع التدين:

إلى جانب الاعتراف لله بالربوبية . الذي يتطلَّب نضجا في الفكر، لم يبلغه الإنسان إلا بعد فترة طويلة من الوجود، حين أدرك ذاته و تميُّزَهُ عن العوالم الأخرى - يُعدُّ الخوف من الموت واحدا من دوافعه، لما يملكه الإنسان في ذاته من تمسُّك بالحياة، وحب للخلود(كان سببا في وقوع آدم في الخطيئة). "و قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين"(البقرة،102)

و إلى جانب الخوف من الموت، هناك أيضا الرهبة أمام عظمة هذا الكون العجيب، وما يجري فيه. و هو ما يكشف للإنسان صغره أمام ما يحيط به من الأكوان، وعظمة خالقها، واستحالة أن يكون وجودها عبثيا. مما دفعه إلى اللجوء إلى الكائن الأعظم منها، الذي تصوَّرته بأنه لا بد أن يكون هو روحها، أو خالقها، ومُحَرِّكها، قصد الاحتماء به من مظاهرها المرعبة: كخسوف القمر، و كسوف الشمس، والرياح، والعواصف والأعاصير، والزلازل، و البراكين...إلخ. كما أنه كان يخشى من المصير المجهول الذي قد تخبئه له نوازل الدهر ومصائب الزمان...إلخ[5].

- التدين خاصة إنسانية:

إن التديُّن، مثل التاريخية، والتفلسف، خاصية من خصائص الإنسان، وُجِد في الإنسان، ومعه، منذ أن امتلك وعيه بذاته وبعالمه، وامتلك القدرة على التفكير والسؤال.

وقد اهتم الفلاسفة بهذه الصفة باعتبارها جزءا من ماهية الإنسان المميزة له عن غيره من الكائنات الحيوانية.

---

[5] راجع فوزي محمد حميد ،، عالم الأديان بين الأسطورة و الحقيقة ، دار حطين ، دمشق ، 1993 ، ص 8.

ذهب الفيلسوف الألماني هيجل 1770-1830 مثلا، في كتابه " فلسفة الدين" إلى أن الإنسان وحده هو الذي يمكن أن يكون له دين. وكذلك فعل تلميذه وخصمه كارل ماركس في كتابه "الإيديولوجيا الألمانية": إذ قال أنه " يمكن تمييز البشر عن الحيوانات بالوعي، والدين، و كل ما يحلو لنا. و أنهم ليبدأون بتمييز أنفسهم عن الحيوانات حالما يباشرون إنتاج وسائط وجودهم، وهي خطوة إلى الأمام مشروطة بتنظيمهم الجسدي. فحين ينتج البشر وسائط وجودهم ينتجون بصورة غير مباشرة حياتهم المادية بالذات." [6]

(قصة موسى مع العصى: " أتوكؤ عليها، و أهش بها على غنمي، ولي بها مآرب أخرى." (طه،18)

و موقف كل من هيغل وماركس لا يختلف كثيرا عن موقف ابن حزم الأندلسي.

"و قد كَفَّرَ ابن حزم (384-456هجرية الموافق ل994-1064 ميلادية) أحمد بن حابط لأنه زعم أن الله – عز و جل – نبَّأ أنبياء من كل نوع من أنواع الحيوان، حتى البق والبراغيث والقمل، مستندا في زعمه هذا إلى قول الله – سبحانه -: "وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم " (الأنعام، الآية 38). ثم ذكر قول الله تعالى: " و إن من أمة إلا خلا فيها نذير" (فاطر،24).

حكم ابن حزم بفساد هذا الاستدلال، انطلاقا من أن الله يخاطب الناس الذين منحهم نعمة العقل، وخصهم بفضيلة النطق. فالله لا يخاطب بالشرائع إلا من يعقلها، ويعرف المراد بها، مصداقا لقوله تعالى: "لا يكلف الله نفسا إلا وسعها." (البقرة، 286).

" ومما لا ريب فيه أن الحيوان ليس له القدرة على فهم الشرائع، ومن ثم فهو غير مخاطب بها."[7]

الإنسان و أسئلة الوجود:

" منذ أن تجاوز الإنسان مراحل تطوره، ونما في الحضارة والوجود، راح يسائل

---

[6] ماركس ، كارل ، الإيديولوجيا الألمانية ، دار دمشق ، دمشق ،1976 ، ص25.

[7] د/محمود علي حماية، ابن حزم و منهجه في دراسة الأديان ، دار المعارف ، القاهرة ، 1982 ، ص 241 .

نفسه عن مولده و مماته، ويحاول التعرُّف على تغيرات الطبيعة الرتيبة أو العنيفة، [8] وكيف يدور اليوم، من فجر يمتد الصبح فيه حتى يصير نهارا، ويرتفع الضحى... وحاول الإنسان معرفة ما يدور في فلكه."[9] ولهذا كان البحث و السؤال صفة من صفات الإنسان الملازمة له بفطرته.

قال تعالى: " فأقم وجهك للدين حنيفا، فطرة الله التي فطر الناس عليها. لا تبديل لخلق الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون." (الروم، الآية30)

- الدين بين الفطرة والتطبع الاجتماعي:

لكن التديُّن مرتبط أيضا بالجماعة، و بتطور موقعها عبر التاريخ. فهو مرتبط بالتطبع الاجتماعي، أيضا.

" ما من مولود يولد على الفطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنَصِّرانه أو يُمَجِّسانه، كمثل البهيمة تنتج بهيمة، هل ترى فيه جدعاء ". (حديث شريف، عن أبي هريرة)

بمعنى أن الطفل، حينما يولد، يتلقى من والديه عن طريق التربية والتنشئة الاجتماعية الصورة التاريخية عن الدين، فكرا و طقوسا. وهي الصورة التي بلغها الوعي الديني، في الوسط أو الجماعة التي ولد فيها. لكنه يملك في ذاته الأدوات (الميزان العقلي) التي يستطيع بفضلها أن يزن مقدار تقبُّلِهِ لتلك الحقائق، حين يرشد.

من الوحدة إلى التعدد:

تعدد الأمم و تعدد المناهج و الشرائع:

إذا كان التدَيُّن فطرة في الإنسان، موجودا فيه بما هو إنسان، نتيجة ما يلاحظه على ذاته من ضعف و وهن، من جهة، بالقياس مع ما في الطبيعة من ظواهر تثير في نفسه الخوف و الرهبة، فإن له بعدا اجتماعيا أيضا.

متى ظهر التعدد؟

يقول بعض المفكرين و الفلاسفة بفكرة المرحلتين: مرحلة طبيعية، و مرحلة

---

[8] التي تستجيب بدورها لمعقولية خالقها، انقيادا وطاعة، بالسير وفق القوانين التي سيَّرها عليها، أو للغريزة التي طبعها في الحيوان. "ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة، وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم، ويفعلون ما يؤمرون. "[8]

[9] يوسف عيد، موسوعة الأديان السماوية والوضعية، الديانة اليهودية، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1995 .

مدنية. كان الناس، في البداية، أمة واحدة، لما كانوا على الحالة الطبيعية، وقبل ظهور الحضارة و ظهور الأديان و الأنبياء.

- " وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا " (يونس،19)

أما لماذا اختلفوا؟ فبسبب ارتباط كل جماعة بما لديها،حين تشكلت الجماعات، بصورة جعلت كل واحدة مغلقة على ذاتها، دون الجماعات الأخرى.

- " فتقطعوا أمرهم بينهم زُبُرًا، كل حزب بما لديهم فرحون. فذَرْهم في غمرتهم حتى حين."(المؤمنون، 54)

تاريخية النزوع الديني عند الإنسان

في المراحل الأولى للإنسانية، كان الإنسان ينسب إلى قوى الطبيعة أرواحا، ثم نسب إليها ذكاء وفطنة وروحا، وإرادة، تمكِّنها من السيطرة على الكوْن، وعلى حياته أيضا.

يمكن أن نوجز مسألتي فطرية الدين في الإنسان من جهة، وارتباطه بالجانب الاجتماعي، من جهة أخرى، ثم كون الدين صادرا من الله المطلق، من جهة، لكنه مرتبط بتاريخية الإنسان النسبي من جهة أخرى، في جملة من النقاط:

- أن التديُّن فطرة في الإنسان، وجزء من ماهيته." فطرة الله التي فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق لله "(الروم،30).

وقد وضحه رسول الله، في حديث قتادة حيث يقول: "حدثني أنس بن مالك قال: قال رسول الله: فطرة الله التي فطر الناس عليها، أي دين الله تعالى[10]."

- أن مواجهة محدودية الذات و نقصها، بعد وعيهما، والبحث عن كمالها، نتيجة امتلاكها للبعد الميتافيزيقي، هو ما قاد الإنسان إلى السؤال عن الكائن الأكمل، الخالي من أي نقص، للاحتماء به من أهوال عالم الطبيعة والمصير.
- كل الأمم تتفق في تصوير الله في أرقى الصور وأكملها.

---

[10] عن محمد صالح ناصر، تأملات في القرآن الكريم ، مكتبة الريام ، الجزائر،2005، ص12.

من وحدة الدين إلى تعدد الديانات

- كل أمة تعبِّر عن نظرتها، وعن علاقتها بالإله، بطريقة تتناسب ومستوى وعيها وفكرها. " وقد قيل: إن الله أسَّس دينه على مثال خلقه ليستدل بخلقه على دينه، وبدينه على خلقه." [11]
- أن مستوى وعي الأمة يتغيَّر و يتطور، عبر التاريخ.
- وينجم عن ذلك أن التديُّن مرتبط بتاريخية الكائن الإنساني، وبتطور وعيه، وتغيُّر الصورة التي يرسمها للإله، وكذلك علاقته به.

وهو" ما يدل على أن الحقيقة الكبرى، أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد."[12] بل تتجلى لهم بالقدر الذي يتناسب ومقدرتهم على وعيها وفهمها، والامتثال لتوجيهاتها.

الإنسان و رحلة البحث عن الكمال، و الكائن الأكمل

البحث عن الله.

لما كان الإنسان يمتلك في ذاته فكرة الكمال، أي التوق إلى عالم مغاير لهذا الذي هو قائم أمامه في راهنه، كان ذلك دافعا له إلى التنقيب والبحث في العالم الميتافيزيقي المثالي عن الواقع الكامل، وعن الكائن الكامل بإطلاق، المحقق لكل الكمالات في ذاته.

فلا بد أن يكون سابقا في وجوده، عن كل موجود سواه، لا يصيبه الفناء، ولا يتطرق إليه النقص بأي وجه من الوجوه. و لا بد أن يكون، بالتالي، مختلفا عما سواه من المخلوقات الفانية، بأن يكون قديما، غير مُحْدَثٍ، و أن يكون خالدا وأزليا، لا يلحقه التغيُّر والفساد.

والبحث عن الكائن الأسمى،" الله " هو موضوع كل فلسفة في الدين، كما يقول هيغل:

" إنه النقطة التي ينطلق منها كل شيء، و إليها ينتهي. وهو أصل كل شيء، وغايته. وهو

---

[11] الشهرستاني ، الملل والنحل ، ص 39.

[12] عباس محمود العقاد ، الله ، نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة،2005، ص6.

الذي يمنح الحركة[13] لكل هذه التكوينات في وجودها، ومركز حفظها [14]، الذي يُحْيِي، ويمنح لكل شيء، حركته وروحه. هذا الكائن هو بذاته ولذاته، وليست له أية علاقة بأي مطلق آخر سواه. فهو مكتف بذاته، ليست به حاجة إلى سواه، وهو غير مشروط بغيره، بل هو مستقل و حر."[15]

هل لهذا التعدُّد منطق؟

الإسلام: تفسير التعدُّد، و الدعوة إلى وحدة الدين:

يقدِّم القرآنُ الدينَ عند الأنبياء، على اختلافهم، بوصفه واحدًا تعاقب الأنبياء على الدعوة إليه، كل بخطابه المتناسب مع عصره وقومه.

قال تعالى:- " شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم و موسى و عيسى أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه. " [16]

-" قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى، مصدقا لما بين يديه، يهدي إلى الحق، و إلى طريق مستقيم. " [17]

-" إنَّا أوحينا إليك، كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، و أوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل و إسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داوود زبورا، و رسلا قد قصصناهم عليك ورسلا لم نقصصهم عليك. و كلَّم الله موسى تكليما، رسلا مُبَشِّرين ومنذرين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل. وكان الله عزيزا حكيما." [18]

يشرح الرسول (ص) المسألة في حديث شريف، جاء فيه: " إن مثلي، و مثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بَنَا بيتا فحسَّنه و أجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل

---

[13] يصفه أرسطو بالمحرك الأول.

[14] وهو الذي احتاج إليه ديكارت من أجل ضمان بقاء الوجود ، بإعادة خلقه في كل آن.

[15] Hegel. G.W.F, Leçons sur la Philosophie de la Religion , trad J. Gibelin , Librairie Philosophique J. Vrin , Paris , 1959 . p 10 .

[16] الشورى ، 13.

[17] الأحقاف ، 30 .

[18] النساء ،163-165.

الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة ؟ ثم يقول: فأنا كنت اللبنة وأنا خاتم النبيين."[19]

وقال أيضا: " أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا و الآخرة. و الأنبياء إخوة لعلَّات، (إخوة لأب) أمهاتهم شتى، و دينهم واحد " [20].

أما لماذا أنزلت الرسل ؟ فإن الجواب يأتينا في آية من سورة الإسرء: " وما كُنَّا معذِّبين حتى نبعث رسولا [21]." بمعنى أن المسؤولية و التكليف والحساب، كلها مفاهيم لا يستقيم لها معنى، لو لم يسبقهما إنذار و تبليغ ومعرفة.

التوحيد في الإسلام:

قال تعالى مخاطبا نبيَّه محمدا: " شَرَّعَ لكم من الدِّين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه."[22]

مما يبيِّن أن غاية الأنبياء والرسل في الإسلام، ارتفعت من مستوى التصوُّر القومي للإله المجسَّد في طوطم أو صنم، أو إله خاص بجماعة محدودة من الناس دون سواهم، ممن سيجدون أنفسهم، بالاضطرار أو العمل بالمثل، متبنِّين صورة إله آخر مغاير، يجعلونه قوميا خاصا بهم. و هو ما يوقع في التعدِّد حتما، ويلغي فكرة التوحيد، مثلما كان الأمر مع بني إسرائيل، إلى دين يوحد البشرية جمعاء في عبادة إله واحد، غير مجسَّد، بأي شكل من الأشكال.

" وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه، أنه لا إله إلا أنا فاعبدون"[23].

" و إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمان الرحيم. " [24]

المطلق والنسبي في الدين:

---

[19] أخرجه البخاري في صحيحه ، حديث رقم ،3342 / ج3/ 1300 .

[20] أخرجه البخاري ،في صحيحه ، حديث رقم 3259 /ج3/ 1270 .

[21] الإسراء ، 15

[22] الشورى ، 13 .

[23] الأنبياء ، 25 .

[24] البقرة ، 163 .

"يقول علماء الكلام[25] من المسلمين: إن القرآن تكلم عن الله بلسان بني آدم. ومعنى هذه العبارة: أن الله تعالى كلَّم البشر على قدر عقولهم. وذلك بأن مثَّل نفسه كإنسان – وما هو إنسان – و خاطب البشر عن نفسه، كما يخاطب بعضهم بعضا عن نفسه. وذلك ليقْدِر البشر على تصوُّرِ ذات الله وصفاته." [26]

كما استخدم القرآن الكريم أسلوب المشاكلة، أي مسايرة عقول البشر المحدودة والنسبية. أما غايته من ذلك فهي تقريب كثير من الأفكار المجرَّدَةِ إلى أفهامهم، من أجل تيْسير فهم رسالته، و إدراك مقاصده.

إلى جانب ذلك، بثَّ اللهُ، بعِلْمِه الكاملِ المطلقِ، للإنسان إشارات في طريق نمو عقله ومعارفه، بذاته أو بعالمه، يكتشفها من مرحلة إلى أخرى، حتى يتجدَّد له الدين، وتتجلى له إطلاقيته، في توالي صدق معرفته بالله، وإدراكه صدق الله معه، بتوالي المراحل النسبية.

و لو استخدمنا لغة المتكلمين لقلنا: بتوالي مراحل الزمن، يَكتشف الإنسانُ الأزلَ، مما ليس في أزلٍ. وهي عبارة مماثلة لما سوف يقوله الفيلسوف هيغل، بتجسُّد المطلق في التاريخ، في خطوات متدرِّجة. مع فارق، أن المتجلِّي في التاريخ مطلقا، ليس الله بذاته، فقد فعل هذا لحظة الخلق، وهو مستمر، إلى الأزل، من خلال حفظ استمرار الوجود، ولكن المتجلي في التاريخ، هو وعي المطلق في عقول البشر.

فكل رسالة، إذا نظر إليها في ذاتها، وبالارتباط مع شروطها الزمكانية، هي نسبية، أو مُحْدَثَةٌ، حسب تعبيرات المعتزلة. إلا أن الرسائل السماوية، رغم تعدُّدها، فإنها تحمل جملة من الحقائق المشتركة فيما بينها. تلك هي الحقيقة، التي إذا نُظِر إليها في مختلف أوجه تجلياتها، كشفت عن نفسها مطلقة، أو أزلية، لا زمنية، بلغة المتكلمين.

و يبقى مضمون الرسالة واحدا في توجُّهه، مادام المصدر واحدا.

فلازم " أن يعرف الناس أن الله – عز وجل – واحد. ولازم أن يعتقدوا أنه ليس بجسم، ولا شبه بينه وبين مخلوقاته، في شيء من الأشياء. فوجوده لا يشبه وجود

---

[25] علم الكلام هو علم التوحيد ، ويسمى أيضا علم العقيدة، أو الفلسفة الإسلامية.

[26] المصدر نفسه ، ص6.

المخلوقات، وحياته لا تشبه حياة المخلوقات، وعلمه لا يشبه علم الذي له علم في مخلوقاته."[27]

وحدة الإنسانية، وحدة الدين، و تعدد الأمم.

وحدة الإنسانية في الإسلام:

لا يتوانى القرآن، في مواقع كثيرة، عن التذكير بوحدة الإنسانية، وبأن البشر جميعهم من مصدر واحد، هو آدم، وآدم من تراب.

- قال تعالى: " خلق الإنسان من صلصال كالفخار" (الرحمان،14-15)

ويشرح الرسول (صلى الله عليه وسلم) ذلك في الحديث الشريف بقوله: " كلكم لآدم وآدم من تراب "، و " الخلق كلهم عيال الله. " [28] فلا فرق بينهم في الإنسانية، ولا اعتبار لألوانهم أو لأجناسهم في التفاضل بينهم.

وقد قال تعالى في ذلك:

- " هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها. " (الأعراف،189)

- " و هو الذي أنشأكم من نفس واحدة، فمستقر و مستودع. قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون." (الأنعام، 98)

- " يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبثَّ منهما رجالا كثيرا و نساء." (النساء، 1).

وحدة البشرية و تعدد الأمم:

إن القول بوحدة البشرية، في القرآن، لا يعني وحدة الأمة، لأنه لا يتجاهل تعدُّد أقوام البشر وأممهم، وتعدد نظمهم، وشرائعهم، ومعتقداتهم، وكذا رسلهم.

- و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيِّن لهم." (إبراهيم،4)

و هو ما يعني أن القرآن يدعو المؤمنين به إلى الإقرار بوحدة الإنسانية بمعنى

---

[27] الإمام فخر الدين الرازي ، خلق القرآن بين المعتزلة و أهل السنة ، تحقيق أحمد حجازي السقا ، دار الجيل ، بيروت ،1992، ص7.

[28] أخرجه أبو داود و الترميذي

التماثل، والنِدِّية بين البشر، والإقرار أيضا بتعدُّد الأمم والرسل والشرائع، والاعتقاد بأن ذلك لم يكن عبثيا، بل تحكمه معقولية، ومنطق ربانيان. يبقى أن على المسلم تعميق التأمل لإدراك الحكمة من ذلك، والعمل وفقها، والاقتناع بأن الاختلاف بين الجماعات والأمم من سنن الله.

" ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم فيما أتاكم. فاستبقوا الخيرات. إلى الله مرجعكم جميعا، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون. " (المائدة، 48)

" يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم." (الحجرات، 13)

إن الغاية من التعدد إذن، هي التعارف، بكل ما يحمله التعارف من معرفة للآخر، والاعتراف به ندا للذات، مساويا لها. وهذا كله مما يتجاوز فكرة التميُّز، أو الامتياز المزعومة، التي يزعم الشعب اليهودي أنه قد خُصَّ بها من إلهه القومي، حسب العقيدة اليهودية.

- مفهوم الأمة في القرآن:

يَستخدم القرآن مصطلح" أمة "، بالصيغة التي بها يُعدُّ تجاوزًا لمصطلح " القوم " ذي الطابع العرقي، المعبِّر عن العصبية في المرحلة الطبيعية الأولى.

ويُشار بالأمة إلى جماعة تشترك في نظام اجتماعي، أو في الاعتقاد بشيء ما، إيمانا أو كفرا.(هي تحمل معنى الاشتراك في فكرة). مما يجعلها متميِّزة عن غيرها من الجماعات الأخرى. وقد استخدمها في الإشارة إلى أمة ميَّزها اجتماع أفرادها على فكرة هي فكرة التوحيد، والابتعاد عن الشرك بالله، حين أشار إلى أمة إبراهيم.

- " إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا، ولم يك من المشركين." (النحل، 120)

قد يشمل مصطلح الأمة أكثر من قوم، لكنه قد يشمل جزءا فقط من جماعة قومية معينة.

- " من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله " (آل عمران، 113)
- " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون. " (الأعراف، 159)

وقد يكون استخدامها للإشارة إلى صفة تميز فئة قليلة من الناس تجتمع على

مصالح طبقية مثلا، في جماعة قومية أكبر.

قال تعالى، في وصف رد أولئك الذين تحجروا على صورة من صور المجتمع، وأغلقت عقولهم عن إدراك البديل، ولو كان أسمى مما بين أيديهم.

- "بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة، و إنَّا على آثارهم مهتدون. وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير، إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة، وإنا على آثارهم مُقْتدون. قل: أَوَلَوْ جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا: إنا بما أرسلتم به كافرون."(الزخرف،22- 24)

و اختلاف الجماعات البشرية، أو الأمم، يحمل بالضرورة اختلافا في نظم العلاقات الاجتماعية بين الأفراد داخل الجماعة، والعلاقة مع الأفراد المنتمين للجماعات الأخرى. ويحمل كذلك اختلاف نظم الاعتقاد، من خلال الاختلاف في مفهوم الألوهية؛ وهو ما يفسح المجال للقول: إن وعي هذا المفهوم هو وعي للإنسان ذاته.

فإذا أردت معرفة حضارة ما، فعليك أن تكون على علم بآلهتها. لأنك تدرك حينذاك منظومة قيمها و أخلاقها النابعة من معتقداتها، و أنماط السلوك الممكن صدورها عنها.

قال تعالى:

- " لكل أمة جعلنا مَنْسِكًا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فإلهكم إله واحد، فله أسلموا. وبشِّر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم، والمقيمي الصلاة، ومما رزقناهم ينفقون " (الحج،34-35)

- " لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه، فلا يُنازِعُنَّكَ في الأمر، وادع إلى ربك، إنك لعلى هدى مستقيم ".(الحج، 67)

- " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا. ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن ليبلوكم في ما أتاكم. فاستبقوا الخيرات. إلى الله مرجعكم جميعا، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون." (المائدة، 48)

- " ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقتم ". (هود، 118-119)

ويخاطب الله رسوله محمدا ليحدِّثه عن المحيط المكاني المباشر لدعوته، في بدايتها:

- " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا، لتنذر أم القرى ومن حولها. وتنذر يوم الجمع، لا ريب فيه. فريق في الجنة وفريق في السعير. ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، ولكن يدخل من يشاء في رحمته، والظالمون ما لهم من ولي و لا نصير." (الشورى،7-8)

إمكانية إقامة حوار بين الديانات:

لا يكتفي القرآن بالقول بإمكانية ذلك، أو بجوازه، ولكنه يضع له الضوابط الواضحة، من خلال الآية التالية:

" قل يا أهل الكتاب تعالوا إل كلمة سواء بيننا و بينكم ألا نعبد إلا الله و لا نشرك به شيئا، ولا يتَّخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهد بأنا مسلمون".

(آل عمران- 64)

و غني عن التذكير بأن مبدأ توحيد الله بالربوبية و العبودية، يتضمن رفض العبودية لأي سواه، و بالأخص عبودية البشر للبشر. مما يستلزم منه رسوخ القناعة بالندية بين البشر، وهو الأساس الصحيح لأي حوار.